

العربية الصحيحة

شفيق جبرى

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

أية لغة ، فلا هو من بيان العرب ولا هو من بيان الأفريقيـة ، فالذى يزعمـا أن المحافظة على لغة العرب الصحيحة فى بعض الصحف ودورـا الإذاعة وفى بعض المؤلفات قد ضعـف أمرـها حتى كاد يضـمحل ، وقد كان أئمـةـ البيان فى أوائل هذا القرن وأواخرـ القرن الماضـى اذا وقـعوا على شـئـ من اللـعنـ تـبـهـوا عـلـيـهـ ، وقد تـطـولـ المـناـظـرـاتـ فىـ هـذـاـ التـبـيـهـ ، ولا نـسـىـ اـهـتـامـ الشـيـخـ اـبـراهـيمـ الـيـازـجـىـ بـتـبـيـعـ لـغـةـ الـجـرـائـدـ وـمـفـانـطـ الـكـتـابـ وـالـشـعـراـ ، ولا نـسـىـ مـنـاظـرـ الـآـئـمـةـ فـىـ هـذـاـ الـتـوـضـعـ ، أمـثـالـ الـامـيرـ شـكـيـبـ أـرـسـلـانـ وـمـنـ هـمـ فـىـ طـبـقـتـهـ ، أـمـاـ الـآنـ فـقـدـ أـطـلـقـتـ الـإـقـلـامـ اـطـلـاقـاـ ، فـاصـحـابـهـ يـنـحـرـفـونـ فـىـ بـعـضـ الـاحـايـيـنـ عـنـ الـلـغـةـ وـرـوـجـهـاـ فـلاـ تـجـدـ مـنـ يـنـبـهـمـ عـلـىـ هـذـاـ الـانـحـرـافـ ، حتىـ لـوـ تـبـهـمـ نـمـاـ يـالـواـ بـهـذـاـ التـبـيـهـ ، إـذـكـرـ أـنـ أـخـدـ طـلـابـ كـلـيـةـ الـأـدـابـ فـىـ الـجـامـعـةـ السـوـرـيـةـ جـاءـنـ بـعـدـ فـرـاغـىـ مـنـ اـنـتـدـرـيـسـ وـاسـتـاذـتـنـىـ فـىـ قـرـاءـةـ قـصـيـدةـ عـلـىـ مـنـ شـعـرـهـ ، فـقـرـأـ القـصـيـدةـ وـلـاـ يـاسـ بـشـاعـرـيـتـهـ ، إـلاـ أـنـ جـاءـتـ فـيـ القـصـيـدةـ لـفـظـةـ غـيرـ صـحـيـحةـ فـلـفـتـ ذـهـنـهـ إـلـيـهاـ فـقـالـ : يـاـ أـسـتـاذـ ! مـسـالـةـ الـلـغـةـ بـطـلـتـ ! وـصـاحـبـاـ مـنـ أـصـحـابـ اـشـعـالـ ، نـسـالـةـ الـلـغـةـ لـمـ تـبـلـطـ فـىـ نـظـرـ هـذـاـ التـلـمـيـذـ وـهـدـهـ وـلـكـنـهاـ بـطـلـتـ فـىـ نـظـرـ كـثـيرـ مـنـ الـذـينـ يـمـسـكـونـ بـالـقـلـامـ فـلـاـ يـبـالـونـ بـمـاـ تـجـنـ أـقـلـامـهـ عـلـىـ الـلـغـةـ ، وـلـوـ شـتـ أـنـ أـدـونـ طـائـفةـ مـنـ هـذـهـ الـجـانـيـاتـ لـأـعـزـتـنـىـ أـورـاقـ كـثـيرـةـ ، وـلـسـتـ فـىـ حـاجـةـ إـلـىـ أـنـ أـحـلـفـ أـنـ لـأـنـهـ مـاـ يـقـولـونـ ، وـلـأـنـ لـأـجزـمـ أـنـ كـثـيرـاـ مـنـ أـمـثالـ لـأـيـفـهـمـونـ مـاـ لـمـ أـفـهـمـ . لاـ رـيبـ فـىـ أـنـ الـعـصـرـ الـذـىـ نـعـيـشـ فـيـهـ إـنـاـ هـوـ عـصـرـ الـانـقلـابـاتـ وـالـثـورـاتـ وـمـاـ شـابـهـ ذـلـكـ ، وـلـمـ تـقـتـرـ هـذـهـ الـانـقلـابـاتـ وـالـثـورـاتـ عـلـىـ مـذاـهـبـ الـلـمـ وـالـاقـتصـادـ وـالـاجـتمـاعـ وـالـسيـاسـةـ وـحـدـهـ ، وـلـكـنـهاـ اـمـتدـتـ إـلـىـ الـلـغـةـ نـفـسـهـاـ حـتـىـ أـصـبـعـ الـذـينـ يـهـتـمـونـ بـلـغـةـ الـعـربـ وـيـغـارـونـ عـلـىـ

ـ سـلـمـ «ـ اـنـتـالـوـلـ فـرـانـسـ »ـ فـىـ بـعـضـ اـحـادـيـهـ اـمـ بـيـهـ عـسـ اـمـ اـعـصـهـ سـىـ مـرـسـتـهـ «ـ دـىـ مـوـبـاسـانـ »ـ وـدـىـ دـىـسـ بـىـ صـاعـهـ مـنـ خـصـاصـ فـنـهـ وـاـسـرـارـهـ ، وـلـهـنـىـ لـاـ اـسـتـيرـ مـىـ هـذـهـ اـعـصـمـ اـلـىـ مـاـ دـلـرـهـ مـنـ فـدـرـهـ وـمـرـوـنـهـ وـعـيـرـ دـتـ ، فـلـاـ يـعـتـيـنـىـ مـنـ بـلـ مـاـ دـالـهـ اـلـاـ عـبـارـهـ اـلـىـ حـمـ بـهـ حـدـيـتـهـ ، فـقـدـ فـالـ فـىـ حـانـهـ هـذـاـ اـحـدـيـتـ :

ـ اـنـاـ مـاـ يـتـعـلـقـ بـعـدـ اـسـيـدـ «ـ دـىـ مـوـبـاسـانـ »ـ فـاـىـ اـنـتـفـىـ يـاـ اـوـلـ اـنـ هـذـهـ اللـفـهـ اـمـ هـىـ مـنـ اـلـفـرـسـيـهـ الصـحـيـحـهـ وـلـسـتـ اـعـرـفـ تـنـاءـ اـجـمـلـ مـنـ هـذـاـ التـنـاءـ .

ـ هـذـهـ هـنـىـ اـعـبـارـةـ الـوـحـيـدـةـ اـلـىـ حـبـسـتـ عـلـيـهـ الـذـيـنـ فـاـقـبـتـهـاـ تـنـدوـنـ عـنـوـنـ اـنـقاـلـ ، فـقـدـ اـسـتـفـنـىـ «ـ اـنـتـالـوـلـ فـرـانـسـ »ـ عـنـ الـخـوـصـ مـىـ تـلـ مـاـ يـتـصـلـ بـمـحـاسـنـ لـفـهـ «ـ دـىـ مـوـبـاسـانـ »ـ وـلـهـنـىـ هـذـهـ الـمـحـاسـنـ فـىـ قـوـلـهـ : لـفـتـهـ مـنـ اـلـفـرـسـيـهـ الصـحـيـحـهـ ، وـالـذـيـنـ درـسـوـاـ هـذـهـ اللـفـهـ يـعـرـفـوـنـ اـنـ اـلـفـرـسـيـهـ الصـحـيـحـهـ هـىـ اـلـتـيـ تـجـمـعـ الـوـضـوحـ وـالـسـهـولةـ وـالـبـسـاطـةـ وـمـاـ شـابـهـ ذـلـكـ .

ـ اـنـفـلـ فـىـ هـذـاـ اـلـمـقـطـعـ عـنـ هـذـيـنـ الـامـامـيـنـ ، وـاجـمـلـ نـصـبـ عـيـنـىـ الـعـبـارـةـ اـلـىـ اـقـبـتـسـتـهـاـ فـاـهـتـمـ بـاـنـعـرـيـهـ الصـحـيـحـهـ وـبـماـ صـارـتـ اـلـيـهـ فـىـ هـذـهـ الـاـيـامـ ، وـمـاـ اـطـنـ بـىـ حـاجـةـ اـلـىـ اـسـرـافـ فـىـ الـكـشـفـ عـنـ خـصـاصـ الـعـربـيـهـ فـانـ هـذـهـ الـخـصـاـنـصـ لـاـ تـخـفـىـ عـلـىـ الـذـيـنـ قـلـبـاـ النـظـرـ سـنـينـ طـوـيـلـةـ فـىـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ وـالـحـدـيـثـ اـنـشـرـيـفـ وـخـطـبـ الـخـلـفـاـ، الـرـاشـدـيـنـ وـالـخـوارـجـ وـكـلـامـ شـيـوخـ الـشـعـرـ وـبـلـغـهـ اـلـكـتـابـ الـذـيـنـ اـجـتـمـعـتـ لـهـمـ اـسـبـابـ الـبـيـانـ فـمـلـكـوـاـ اـئـمـةـ الـكـلـامـ فـلـمـ يـعـجـزـوـنـ عـنـ الـافـصـاحـ عـنـ شـئـ منـ الـافـكـارـ بـمـاـ يـنـاسـبـهـ مـنـ الـاـلـفـاظـ وـلـمـ يـخـرـجـوـنـ فـىـ هـذـاـ الـافـصـاحـ عـنـ رـوحـ الـلـغـةـ وـعـقـرـيـتـهـ .

ـ اـذـ كـانـ مـوـضـعـ الـعـرـبـيـهـ الصـحـيـحـهـ قـدـ خـطـرـ اـلـآنـ بـيـالـيـ فـاـنـسـبـ فـىـ هـذـاـ اـنـ الـذـيـنـ يـغـارـونـ عـلـىـ لـغـةـ الـعـربـ يـمـرـونـ فـىـ هـذـاـ عـصـرـ بـنـمـطـ مـنـ الـبـيـانـ لـمـ يـعـلـمـونـ مـنـ

تموت تراكيب كانت تعيش في القديم ، والشاهد في هذا الباب كثيرة ، فانا لا نفتح معجما من معجمات اللغة الا رأينا الفاظا ماتت لا يستعملها أحد في هذه الايام ، ولا نفتح بعض كتب الادب القديمة الا وجدنا تراكيب او استعمالات لا يائس بها هذا العصر ، فلا خوف من موت بعض الالفاظ او بعض التراكيب ولا خوف من ميلاد بعض الالفاظ او بعض التراكيب ، اما الخرف كل الخوف من خروج اللغة في هذا الميلاد عن روحها وعقرتها ، الخرف كل الخوف من ميلاد ما لا يائس ذوق اللغة ، ان الذين جددوا اللغة في القديم ، وقد يكون أبو تمام على رأسهم ، قلبوها معاين الالفاظ من وجهه الى وجهه ، فضيقوها حينا وسعوها حينا وجاءوا بـ تراكيب حديثة ، الا انهم لم ينحرفوا في هذا الامر عن روح اللغة ، فإذا قرأنا شعرهم فانا نقرأ شعرا عربيا لأشعرا أجمعيا ، أما أن يترك شأن توليد الالفاظ والتراكيب لجماعة طائشين ، مهوسين ، لا علم لهم باللغة ، ولا احاطة لهم بالادب ، ولا اطلاع لهم على تاريخ هذه اللغة وهذا الادب ، فهذا معناه فساد اللغة وضياعها .

وخلالمة الامر ان اشعر بأن العربية الصحيحة قد ضفت في هذا العصر ولا عبرة بفترة من اصحاب القلم لم تضعف عربتهم ولا ضفت غيرتهم عليها ، اما الخوف من هؤلا النش ، الذين امسكوا بأقلامهم وأطلقوا في كل مهب ، فلا نحن نفهم ما يقولون ، ولا هم يفهمون ما قالوا ، ولا نستطيع أن نقول : لهم فهمهم ولنا فهمنا ، فان اللغة ليست ملكهم وحدهم حتى يعيشوا بها كيف شاءوا ، وانما هي ملك الامة بعذافيرها ، وعلى الحكومات تقع تبعه الاهتمام بها كما تقع عليها تبعه الاهتمام بال مجرمين ، فهي التي تتولى في مدارسها تدريب النش ، على ذوق اللغة ، هي التي ينفع اساتيذ مدارسها روح اللغة في روح الطلاب . فانا نخشى ان تنحصر العربية الصحيحة في طبقة محبوكة من اهل الادب وان تشيع في الطبقات العامة عربية غير مفهومة وفي هذا الامر ما فيه من العواقب غير محمودة .

شفيق جبرى

عقبالية هذه اللغة في نظر كثير من المهوسين موتى او مرضى او مشوهين ، وهم لا يدركون أن الذى مات انتها هو فهمهم وأن الذى مرض انتها هو ذوقهم وأن الذى شاه انتها هو أدبهم ، ولست أعلم ولا يعلم غيري مدى هذا الهوس ، ولماذا لا أقول : هذا الجنون !

كنت في بلدة من ولاية « فيرجينية » في اميركا ، فدخلت عرضا جامعة هذه البلدة وزرت مكتبتها ، فوجعت عيني على كتاب لا يحضرني اسمه ولا اسم مؤلفه ، ولكنني أذكر أنني وجدت في بعض صفحاته أن أحد رجال « الكونغرس » قال في المجلس : أنا نضع القوانين لمعاقبة المجرمين من المتصوص والقتلة وغيرهم ، فلما ذا لا نضع قانونا يعاقب به الذين يفسدون اللغة ويتهارون بمقدساتها .

هذا قول قيل في أمريكا ، في البلاد التي يزعمون أنها غرقت في المادة فلم تكون عناتها بأمور الفن والأدب واللغة على قدر عناتها بالمعامل والمصانع ، فما بال البلاد التي لم يبق لها من ميراثها الضخم في تاريخها إلا اللغة ، ما بال هذه البلاد يرى رجال الامر فيها فساد اللغة ولا يتحركون ، فان اهل الادب لا يستطيعون ان يروا بأعينهم الاستخفاف باللغة ومقدساتها دون ان يساورهم الالم في هذا الاستخفاف ، ولو تبعنا تاريخ الامم الادبي لرأينا ان هذا التاريخ ملآن من اسماء الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن اللغة ومناهضة الذين يعيشون بروحها وعقرتها ، ولم يكن اهتمام الامم بلقتها في القديم أكثر من اهتمامها بها فن الحديث فقد قرأت من أربعين سنة في بعض الصحف او بعض الكتب أن ناقدا من تقاد ايطالية المشهورين قال : انق امر في هذا العصر بعبارات فأشعر بان معدتي تقلب على ، ولا شك في أن معدته لم تقلب عليه الا لأن تلك البارات خارجة عن روح اللغة الإيطالية .

من بدائه الامر ان اللغة لا تقف عند افق من الآفاق ، فهي في حركة مستمرة ، في انتقال من طور الى طور ، ففي كل عصر تموت الفاظ وتولد الفاظ ، في كل عصر تنتقل الفاظ من وجه الى وجه . مرة تنتقل من معنى خاص الى معنى عام ، ومرة من معنى عام الى معنى خاص ، في كل عصر تولد تراكيب لا يعرفها العصر المتقدم ثم